د. عبد النبي اصطيف وشؤون الاستشراق وصدام الحضارات:

«اقرأ» هي المفتاح الوحيد لاستعادة وجودنا والإبقاء عليه..

حوار - لينا إدلبي:

■ الدكتور عبد النبي اصطيف، استاذ النقد والادب المقارن في جامعة دمشق، ووكيل كلية الاداب والعلوم الانسانية للشؤون العلمية فيها سابقا، والاستاذ الزائر في عدد من الجامعات العربية والاميركية، والناقد الادبي المعروف، عاد اخيرا من زمالة بحث امتدت عاما ونصف في مركز اكسفورد للدراسات الاسلامية، وكلية (سانت انتوني) في جامعة اكسفورد، امضاها في العمل على انجاز عدد من مشروعاته العلمية من بينها كتاب بالانكليزية عن الاستشراق، وآخر عن علاقة العرب بـ«وثالث عن ادوارد سعيد، فضلا عن القائه سلسلة من المحاضرات عن الاستشراق وادوارد سعيد، واخرى عن علاقة الاسلام بالغرب، وعددا من المحاضرات عن الادب العربي وعلاقته بالغرب.

عن الاستشراق وازمته وموقفنا منه، وعن الادب العربي في الغرب، فكان هذا اللقاء مع الدكتور عبد النبي اصطيف.

● كيف تنظر الى طبيعة الاستشراق، والى صلته بالعلاقة بيننا وبين الغرب؟

■ عندما نتحدث عن الاستشراق فإننا في واقع الامر نتحدث عن معرفة ينتجها الآخر عنا، وهذه المعرفة بالطبع إنما ينتجها الآخر لتحقيق غايات محددة ووظائف محددة مرتبطة بمجتمع هذا الآخر.. وبالتالي لا نستطيع ان ننظر الى الاستشراق والدراسات العربية بمعزل عن المواجهة التي تتم ما بين الوطن العربي من جهة، والغرب من جهة اخرى، وطبعا لهذه المواجهة تاريخ طويل ربما يمتد الى بدايات ظهور الاسلام، وبعضهم يعود بها الى ما قبل ذلك، ولاننسى المحطات الرئيسية لهذه المواجهة والتي تشمل الحروب الصليبية، والوجود الحضاري العربي في الاندلس وصقلية، وفيما بعد التمدد الاسلامي للدولة العثمانية في جنوب شرقي اوروبا والذي شكل تهديدا قويا للآخر الاوروبي.. فالمعرفة التي تتناول الوطن العربي والعالم الاسلامي وينتجها الغرب هي في الحقيقة متأثرة الى حد بعيد بهذه المواجهة. واليوم في وقتنا الحاضر وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي، ومنظومة الدول الاشتراكية في الغرب - وفيما يبدو لبعض السياسيين - هناك من يحاول البحث عن عدو جديد، ويعبىء قواه للمواجهة.. وقد وجد بعض الناس في العرب والمسلمين في الفترة الاخيرة هذا العدو الجديد، واظن ان اغلبنا اطلع بشكل او بآخر على كتاب (صاموئيل هينتنغتون) الجديد والمعنون بـ(صدام الحضارات)، والذي يهيىء صانعي القرارات في العالم الغربي المعنيين لهذه المواجهة، بالايحاء بأن هناك صداما للحضارات، وانه لابد ان يستثار صدام ما بين الغرب من جهة، والحضارة الاسلامية من جهة اخرى.. وان على الغرب فيما اذا شاء ان يحافظ على نفسه ان يواجه هذا العدو الجديد الذي يحمل الحضارة العربية الاسلامية.

ازمة قديمة

● يتحدث بعضهم عن ازمة في الاستشراق، فهل هو حقا في ازمة؟

■ الاستشراق في ازمة.. والناس يتحدثون عن هذه الازمة منذ ستينات هذا القرن حيث بدأ الحديث عنها بشكل جدي في مقالة انور عبد الملك التي نشرها عام /١٩٦٣/ في مجلة «ديوجين» بالفرنسية وبالانكليزية بعنوان: ازمة في الاستشراق. بعد ذلك جاء الباحث العربي الفلسطيني عبد اللطيف الطيباوي الذي تحدث عن الازمة في الاستشراق المكتوب بالانكليزية.. وفيما بعد كان الهجوم الأكبر على مؤسسة الاستشراق في العالم الغربي على يد المفكر ادوارد سعيد الذي نشر كتابه (الاستشراق) عام/١٩٧٨/ ومنذ ذلك الوقت والناس مشغولون بادوارد سعيد وباستشراقه، وهذا ما تناولته محاضراتي التي القيتها في مركز اكسفورد للدراسات الاسلامية العام الماضي، حيث تحدثت فيها عن مشكلة الاستشراق وازمته الراهنة، والدور الذي اداه كتاب سعيد في التركيز على هذه الازمة من ناحية، وفي جعلها مشكلة يومية لاولئك المستشرقين المعنيين بدراسة الوطن العربي والعالم الاسلامي من جهة اخرى.

لقد بين ادوارد سعيد وعلى نحو صارخ جدا امورا ثلاثة، وان على الغرب ان يواجه هذه الامور مواجهة جادة، اولها، ان الاستشراق لم يقدم معرفة حقيقية عن الشرق واهله، حيث انه لم يتناول الشرق الحقيقي، بل انه ينطوي على كثير من الجوانب الخيالية، والبغض، والاهواء المغرضة، وامور اخرى كثيرة تثير حفيظة العرب والمسلمين.. اذن فهذه المعرفة ليست معرفة حقيقية عن الشرق وفيها الغث، وفيها الثمين. اما الامر الثاني، فهو ان الاستشراق لم يقدم اي خير لاهل المنطقة، بل نجد ان المعرفة الاستشراقية وظفت لقمعهم، والاستيلاء على اراضيهم، واستغلالهم، اي بفرض السيطرة عليهم اقتصاديا وعسكريا وسياسيا، وبالتالي فإن هذه المعرفة لم تكن نعمة على الشرقيين، بل كانت نقمة.. وبالطبع لا يمكن لاحدنا ان يتصور ان هناك معرفة او علما يمكن ان يؤدي الى دمار مجموعات بشرية بكاملها، كما هو الحال بالنسبة للاستشراق المرتبط بفلسطين الذي وظف حقيقة من اجل تطهير ارضها من اهلها، ولاقامة مجتمع آخر دخيل.. وهكذا فقد اصبح المستشرقون الان على وعي بهذه القضية، وان عليهم ان ينتجوا معرفة تخدم اهل المنطقة بشكل او بآخر، تحسين من وجوه حياتهم والا تكون وبالا عليهم.

الامر الثالث: هو ان المعرفة من الاسباب المهمة في ازالة العداوة، لان الانسان عدو ما يجهل.. فالمعرفة التي ينتجها الغرب عن الشرق لم تخفف العداوة بينهما، بل على العكس احجبتها، واصبحنا نرى مواجهة في كل يوم. يفترض بالمعرفة ان تكون واسطة خير وتفاهم بين الشعوب، هكذا كانت المعرفة العربية الاسلامية في العصور الوسطى، فقد ساعدت على خلق مناخ انساني معافى، على الرغم من تعدد لغاته وقومياته، عاش الناس فيه بوئام وتفهم لا نجده متحققا اليوم، وانما نجد العكس، فحدة المواجهة بين الشرق والغرب تزداد يوما بعد يوم بسبب من هذه المعرفة الغربية التي ينتجها الغرب عن الشرق، وكلنا يعاني من هذه المواجهة بشكل او بآخر.

وبالتالي فالغرب الان معني بحل هذه الاشكالات الثلاثة، والتي اعتقد ان ادوارد سعيد قد جعلها من خلال كتاباته موضوع الساعة في العلاقات الثقافية الدولية.

● وماذا عن حضور الادب العربي في الغرب، وتأثير هذا الحضور في العلاقات بين الشرق والغرب؟

■ حضور الادب العربي في الغرب متصل وعلى نحو وثيق بالحضور العربي عامة في اوروبا واميركا والعالم.. يمكن القول انه مع قدوم الثورة التقنية الهائلة التي يسرت لنا وسائل الاتصال الحديثة، اصبح العالم اكثر وعيا بالعرب في مختلف اقطارهم، بمشكلاتهم، بطريقة حياتهم، او طرق حياتهم، بتاريخهم، وبثقافتهم اكثر مما كان عليه مما قبل، فضلا عن تأثير المقتربات العربية الكثيرة في اوروبا الغربية واميركا، ودور عرب المهجر في توسيع معرفة الغرب عن العرب وتعميقها.

الحقيقة ان الاهتمام بالادب العربي عامة، والحديث منه خاصة، قد تزايد وعلى نحو ملحوظ بعد نيل نجيب محفوظ جائزة نوبل للآداب، ويمكن القول انه مهما كابر البعض في الاقرار بأهمية ادبنا العربي، فإن هذا الادب غدا جزءا اساسيا من الادب العالمي، يدرس في الجامعات، ويقرأ على نحو واسع من شريحة المثقفين غي الغرب. ثمة امر آخر ساعد على هذا التحول هو ان مقولة المركزية الثقافية الغربية باتت تواجه اليوم، حتى في اوروبا نفسها، تحديات جادة. الغرب مهم ولكن ثمة قناعة انه ليس مركز العالم من الناحية الثقافية، فثمة امم وشعوب تسهم وعلى نحو جاد في اغناء الثقافة العالمية، وفي الدور الذي ادته مختلف الامم في نمائها وتطورها.

وهناك الكثير من الدراسات التي تتحدث عن دين الغرب لثقافات الامم الاخرى في مختلف العصور، ومن بين هذه الثقافات تشغل الثقافة العربية الاسلامية مكانة بارزة بالطبع، والمكابرة هنا لا تجدي..

عندما ننظر في المكتبة الغربية (باللغات الأوروبية الرئيسية) نجد الكثير من الكتب العربية المترجمة الى هذه اللغات لعدد كبير من الكتاب والشعراء العرب مثل: نجيب محفوظ، سعد الله ونوس، زكريا تامر، ادونيس، نزار قباني، محمد الماغوط، وليد اخلاصي، يوسف ادريس، محمود درويش.. الخ. لقد اصبح هؤلاء معروفين تماما في الغرب، وادبهم جزء لا يتجزأ من الأدب اليوم.

والادب النسائي العربي اصبح جزءا اساسيا من النزعة النسوية في العالم كله.. واصبح الناس في الغرب يقرأون الكثير للكاتبات العربيات من امثال: نوال السعداوي، اهداف سويف، وحنان الشيخ.. بل هناك مقررات كاملة مخصصة لدراسة الحركة الادبية النسائية في الوطن العربي.

وبشكل عام يمكننا العثور على الكثير من الكتب المترجمة لادباء عرب بطبعات شعبية من شرق الوطن العربي والغربة في اية مكتبة في مطار، او عاصمة، او حتى مدينة من الدرجة الثانية.. وهذا التوسع في الاهتمام بأدبنا الحديث ينبغي ان نفيد منه لانه يحسن من صورتنا وهي بالمناسبة بائسة حقا، ونبين اننا جديرون بالحياة الكريمة مثل غيرنا، وان على الآخرين الا يستخفوا بمشاعرنا وآلامنا ومعاناتنا، وكأننا غير محسوبين على البشرية كما هو الشأن الآن.

لقد اصبحت معاناة الشعب العربي الفلسطيني واضحة للجميع، واصبح لها انصار كثيرون.. انظري مثلا!؟ المفكر غارودي وسواه.. من قبل لم يكن يسمح لمثل هذه الاصوات ان ترتفع. لقد عزز الجانب الثقافي للعرب من حضورهم في الغرب، وجعل الغربيين اكثر استعدادا لتفهم وجهة النظر المخالفة للوجهة السائدة، والتي هيمن عليها الصهاينة واعداء العرب والمنطقة بشكل عام !!..

وعلينا الافادة من هذا التوجه، وان نطوره لصالح اعادة العرب الى مصاف الحضارة العالمية كمشاركين في صناعة هذه الحضارة اكثر من قبل، وانهم مستعدون الآن لمعاودة دورهم الحضاري.

● هل تحدثنا عن آخر مؤلفاتك التي ستصدر قريبا؟

■ سأنتهي من مشروع كتاب يضم المحاضرات التي القيتها عن موضوع الاستشراق في اميركا وبريطانيا، كما انهيت كتابا باللغة العربية عن الاستشراق ايضا وهو موجه الى القارىء العربي، ويتحدث عن العلاقة التي يمكن ان نقيمها نحن العرب مع هذا التقليد الثقافي الغربي.. كما انني وقعت عقدا لنشر كتاب بالانكليزية سيصدر في نهاية العام بعنوان: (نحو استشراق جديد، مقولة الشراكة المعرفية بين الشرق والغرب)..

لقد اخر السفر بغرض طلب المعرفة والبحث العلمي نشر بعض كتبي لانه بحاجة الى متابعة، ولذلك فإن عودتي ستمكنني، فيما ارجو، من نشرها.

هناك كتاب مائل للطباعة منذ سنوات بعنوان: «الدراسة الادبية خمسة مناهج» وكتاب آخر عن المصطلح النقدي بعنوان: «في نظرية النقد، مفاهيم رئيسية»، وكتاب ثالث عن المؤثرات الاجنبية في النقد العربي الحديث. فضلا عن كتاب بالانكليزية يدرس علاقة النظرية النقدية العربية الحديثة بالغرب، وقد اتفقت على نشره مع مركز الشرق الاوسط في كلية (سانت انتوني)، وهو في طور التنقيح. اضافة الى الكثير من المقالات والبحوث التي نشرت او في طريقها الى النشر في مختلف الدوريات المتخصصة بدراسة الادب العربي او الادب المقارن، او الدراسات الاسلامية.

في هذا الزمن الجرح يجد العربي نفسه في حاجة الى ما يبقي عليه وعلى وجوده، وأنا أجد ذلك في العمل الثقافي - المعرفة هي طريق الخلاص بالنسبة لي، إقرأ، هي المفتاح، وعلينا جميعا ان نقرأ بهذا المعنى حتى نستعيد وجودنا، وننتمي بحق الى عالمنا المعاصر!!..

■ د. عبد النبي اصطيف ■